لحن حزين

د. زينب حلبي- مصر

هى لم ترى فى طفولتها ما يشعرها بالأمان كانت والدتها قاسية القلب وكانت تفضل الذكور على الإناث ربما لأنها رأت أمها تفعل ذلك فانطبعت هذه الصورة المجحفة فى عقلها الباطن وكتب عليها هذا هو الصواب فكانت دائما ما تطلب من زوجها شراء الملابس الجديدة لأولادها وتنسى إبنتها حتى أنها كانت تراهم يلبسون الجديد وهى لا تجد سوى الملابس الممزقة.

حتى الطعام كانت تفضل الذكور عن الإناث فيه مع أن الفتاة كانت تفهم جيدا أنه لا فرق عند الله بين البشر إلا بالعمل الصالح كما تعلمت فى مدرستها.

فكانت تحزن وتكتم دموعها بداخلها . لا تتذكر أن أمها ضمتها إلى صدرها يوما أو صادقتها أو سألتها عما يضايقها ، فكانت تشعر بالوحدة وهى مع أسرتها وكثيرا ما كانت تنذوى وحيدة مع دميتها تكلمها وتشكو لها من التجاهل وعدم الإهتمام الذى تلقاه دون أن تجنى أى ذنب. وكان والدها كذلك لا يعيرها إهتماما إلا نادرا عندما يجدها حصلت على درجات عالية فى دراستها وتخطت مستوى أخيها الأكبر منها. ولم يحاول أبيها أن يقبلها أو يضمها أثاء طفولتها فكانت تفتقد ذلك الشعور جدا خاصة وأنها رأت ذلك فى المسلسلات والأفلام وعلمت أنه من وسائل الدعم النفسى والتعبير عن الإهتمام علمت ذلك حين كبرت وأصبح من

المستحيل أن تعيد طفولتها لتحصل على ما حرمت منه.

لم تكن تريد المال أو المظاهر المادية كانت تريد فقط الإهتمام والحنان ولم يحالفها الحظ فى الحصول عليهما من أسرتها وبالطبع إهتزت ثقتها فى نفسها وشعرت بالمزيد من الخجل من كونها أنثى بما تمثله هذه الكلمة من خوف وقلق وإحساس بالدونية كما وصلها من أبويها دائما.

عزمت سماح وكان هذا إسمها أن تعوض ما فاتها من خبرات فى حياتها المنغلقة بالقراءة فكانت تقرأ بنهم شديد فى كافة المجالات وكانت تذهب للمكتبة المدرسية يوميا للقراءة واستعارة الكتب ولا تمل أبدا من قراءة كتاب وراء كتاب حتى حصلت على ثروة لغوية عظيمة ظهرت فى إسلوبها فى مواضيع الإنشاء فى المدرسة ، ولكن ياللعجب كان مدرسيها يستكثرون على فتاة فى مثل سنها أن تكتب بهذا الأسلوب المنمق والأفكار المرتبة حتى أن أكثر من معلم سألها بأسلوب جاف أخبرينى من أين نقلتى هذا الموضوع؟

وكانت تشعر بالظلم ومن خجلها لا تستطيع الدفاع عن نفسها وتكتفى بالصمت.

وتقول فى قرارة نفسها سيأتى يوما تعرفون جميعا قدرى ومدى ظلمكم لى.

مرت الأيام وإلتحقت سماح بالصف الثالث الإعدادى وكانت فى منتهى النشاط فى المدرسة . كانت دؤبة فى الذهاب للمكتبة حتى نالت من المكتبة جائزة

أفضل قارئة. وهذا بالطبع لفت نظر جميع المعلمين فى مدرستهاز، ومنهم أستاذها حسن معلم اللغة العربية الجديد الذى جاء المدرسة حديثا على أثلر إنتقال مدرّستها المفضلة أستاذة مجدة والتى بكت بعد أن فارقتها كثيرا . ودخلت سماح فى حالة من الإكتئاب بسبب إنتقال أستاذة مجدة وهى الوحيدة التى منحتها الإهتمام والإحترام واعتبرتها الفتاة المثالية لجدها وإجتهادها ومنذ أن إنتقلت إلى مدرسة أخرى فى مدينة مجاورة بسبب زواجها فيها وسماح تشعر بالحزن وبأن شيئا هاما ينقصها لا تدرى بالفعل كيف تعلقت بها ، وكيف صارت الدنيا كئيبة بعدها.

ومنذ أن حل محلها أستاذ حسن وهى تكرهه ول تحب التعامل معه إلى أن قام بعقد إختبار فى اللغة العربية ليعرف مستوى الفتيات فى فصله وطبعا حصلت هى على أعلى درجة فى الفصل فلفتت نظره ولم يكن يعرفها وقتها فسأل زميلاتها من تكون سماح عبد الحميد ؟ فأشاروا إليها دون أن تدرى ز وفى الحصة التالية دخل الفصل وطلب منها أن تقف وهنا إحمر وجهها من الخوف من أن يكون سيعاقبها أو أن تكون حصلت على درجة سيئة فى الإختبار وتسارعت دقات قلبها حتى أنها خيل إليها أن كل من فى الفصل الدراسى يسمعها ولكنها تفاجأت بأنه يقول صفقوا لها هى حصلت على الدرجة النهائية فصفق الجميع وشعرت هى بالخجل وهو يعطيها قلم جمل مكافأة على تفوقها.

شعرت بأن الدنيا تهتزتحت أقدامها وبأنها تحلم فلم يسبق لها أن يعيرها أحد هذا الإهتمام من قبل.

وفى الشهر التالى حصلت على الدرجة النهائية وعلى نفس التقدير والجائزة وتوالت عليها الجوائزوالنجاحات فى هذه المادة بعد ذلك .

وكان الأستاذ ما أن يصحح الواجبات إلا ويكتب لها كلمات الشكر والأمنيات بمستقبل باهر. وهنا بدأ؟ قلبها يدق بصورة غريبة عليها جدا إذا ما رأته أو مر أمامها . وشيئا فشيئا بدأت تشعر بأنها تبحث بعينيها عنه فى كل مكان منذ أن تدخل المدرسة وحتى ينتهى اليوم الدراسى . الحقيقة أن ذلك لم يؤثر على مستواها الدراسى فكانت متفوقة وتحصل على المراكز الأولى فى كافة الإختبارات ولم يمنعها هذا من إرتياد المكتبة لقراءة الكتب بشكل يومى . وشعرت ذات مرة أ؟نه ينظر إليها أيضا فارتبكت وذهبت بعيدا . وفى مرة أخرى نادى عليها من الفصل وعندما خرجت له سألها إن كانت هناك حصة عربى اليوم له فى فصلها أم لا فأجابت بالإيجاب دون أن ترفع نظرها إليه وكانت تتصبب عرقا وهو شعر بذلك فقال لها عودى لفصلك الآن. لم تقنعها حجته ولم تصدق أن سؤاله هو السبب الوحيد . ومنذ ذلك الحين بدأت تضطرب كلما كلمها وتتلعثم بل حدث أن سألها ذات مرة أمام الفصل فوقفت لتجيب عن سؤال تعلم إجابته جيدا ولم تجب إنما شردت وصادفتها حالة من فقدان الوعى للحظة لم يلحظها أحد ولكنها إنتبهت على صوته يخبرها أن تجلس وإحدى زميلاتها تجيب السؤال وحاولت تذكر تلك اللحظة وماذا قالت أو فعلت ولكنها لم تفلح وكأنها قد شطبت من وعيها تماما.

بعد هذا الموقف علمت انه خطب فتاة منذ فترة حتى قبل أن يأتى للعمل

بالمدرسة . فشعرت بالحزن وقررت أنها لابد أن تنساه لأن هذا يعنى أن قلبه مشغول بغيرها وهى لا ترضى أن تتعدى على حق غيرها فى أمر كهذ . كما أنه ليس من الأخلاق فى شيء أن تفكر فى أحد الشباب فهذا ينافى حياءها وخلقها الرفيع وقيمها النبيلة التى اعتنقتها منذ أن بدأت تقرأ وتفهم واجباتها كفتاة من أسرة محافظة جدا إلى الحد الذى يمنعها من الخروج إلى الشرفة أو زيارة أى صديقة لها أو الذهاب فى أى رحلة مدرسية وهذا المنه كامن يأتى فى صورة صارمة جدا مستحيل أن تتغير هذه القرارات لأى سبب.

وجدت سماح نفسها تفكر فيه ليل نهار تحاول جاهدة ألا تفعل ولا تستطيع طبعا لم يكن هناك من ناحيته ما يدعو أبدا لذلك فربما هو كان يعاملها بذوق شديد كباقى الطالبات ولكن المشكلة تكمن فى داخلها هى لأنها تنجذب غالبا لمن يعاملها برفق ويمنحها التقدير الذى تستحقه والذى حرمت منه فى طفولتها.

ولكنها على حداثة عهدها بمثل هذه المشاعر بذلت جهدا جبارا لتنساه ولكى ينقلب تعلقها به إلى كراهية بل كانت تبحث عن أى عيوب تبدو فى شخصيته لتبرر لنفسها كراهيته وإذا قابلها فى طريق تمشى من طريق آخر وإن حدث وإلتقت به فى أى مكان لا تحييه أة تسلم عليه وفى الغالب هو فهم أنها تحاول الإبتعاد عنه لسبب لا يعلمه . ولم تعرف فى يوم من الأيام كيف كان يراها هل كان يشفق عليها بسبب خجلها المتناهى والظاهر جدا لأى انسان يراها؟ أم أن قلبه تحرك بالفعل تجاهها لم تحاول أن تعلم ولكنها كانت تدعى أن الحب حرام وغير أخلاقى وأنها لن تسقط

فيه أبدا فى يوم من الأيام. والحقيقة أنها مع الزمن عرفت أنها إنما كانت تخشى من ضعفها المتناهى عندما تحب فكانت تحمى نفسها برفض أى مشاعر قد تتجه نحوها وحافظت على قلبها طاهرا نقيا لم يدخله أحد ظنا منها أن ذلك يرفع قدرها ويمنحها قيمة ليست لكل الفتيات ولكنها لم تكن تدرك وقتها أن المشاعر الخارجة عن الإرادة ليست إلا هبة يمنحها الله لمن يشاء حتى يتذوق طعم السعادة ولو لقدر من الزمن لأن العلاقات غالبا تفشل وتترك العديد من الندوب النفسية التى لا يمحوها الزمن مهما طال.

برغن أنها علمت بعدها بسنوات أنه ترك خطيبته وتزوج بفتاة تصغرها بعام كانت معها فى نفس المدرسة إلا أنها لم تندم على قرارها بخنق هذا الحب فى قلبها وطى هذه الصفحة الأولى من حياتها إلى الأبد.